# مقدمة الطبعة العربية

## إسلام السوق بعد الربيع العربي

أسهَمت اللحظة الثورية التي مرَّت العالم العربي، بدرجات متفاوتة وأنماط مختلفة، في تسييس مُفرِطٍ للقراءات التي تناولت ديناميَّات الدينية. كما أسهمت، من ناحية أخرى، في اعتماد مقارباتٍ افترضت حدوث انقطاعات في مسيرة الحركات الاسلامية. هكذا، دفع الربيع العربي الإخوان المسلمين من مساحة العمل المجتمعية الى السعي المُركَّز للحصول على السلطة والهيمنة. وانتقل بالسلفيين من رفضِ المُشاركة السياسية الى الانخراط في الفضاء الديمقراطي الجديد؛ المجال المُنفتِح الذي أخرجهم من ضيق التشدُّدِ المذهبي الذي عُرفوا إلى سِعة البراغماتية. العنصر الثالث في المعادلة العربية الجديدة هو توسُّع الظاهرة الجهادية التي تُقرأ الظاهرة الدينية فيها بشكلٍ مزدوج؛ من منظور علاقة الدين بالسياسة وبالدولة ومنظور القطيعة مع التراث السابق للحظة الثورية . .

على مستوى ديناميات الظاهرة الدينية فإنَّ الربيع العربي لا يُشكِّل فقط لحظة انقطاع؛ بل يؤكِّدُ ظهور توجُّهات جديدة.

فالإخوان فعلًا ليبر اليون اقتصاديًّا، ونموذجُ المؤسَّسَة استقرَّ في عالم النضاليَّة؛وتراجع نموذج التنظيمات النضاليَّة الكبيرة لصالح شبكاتٍ بلا رأسٍ أو قيادة. المطالب التي كان الثوري غير الإسلاموي يُلِّحُ عليها عبر «فيسبوك» والشعارات التي كان يُردِّدُها بما لا يتطابق مع تراث الإسلاميين، أظهرت ما كان يعنيه الربيع العربي فعلًا؛ تعبئة مناهضة للسلطوية لا تستندُ الى أيديولوجية محدَّدة، تتحرَّك شبكيًّا، وتخترقها تطلُّعاتٌ وآمال ذات طابع إصلاحيّ أكثر منه ثوريّ تتَّجِه أكثر نحو العالمية. وهذا ما يُفسِّر سهولة التعاون الثوري مع المُنظَّمات غير الحكومية ومُنظَّمات المجتمع المدني العالمي التي دعمت الموجة الثورية. مفاهيم هذا العالم، التي يتشارك فيها جميع فاعليه، وبخاصة الإسلاميين؛ تطوَّرت بسرعة لتضُّمَّ: مهارات البناء الذاتي، والعدالة الانتقالية، والاندماج. تشكيلاتٌ متنوعة أسهمت في تأسيس مِخيالٍ إصلاحي جاء ليسُدَّ، ولو جزئيًا، الفراغ الأيديولوجي الذي ظهر خلال الربيع العربي.

لا يُثير الدهشة، هذا السياق، أنْ تعرِضَ المنظمات الدولية، الغربية في معظمها، على المُحتجِّين الأكثر فاعلية فرصًا للتوظيف؛ الأمر الذي أنتج حالة من الاحترافية داخل عالم النضالية أفرز تأثيرات عدة: فتور جذوة الحماس الثورية وخفوت شعلتها،مع تراجُعِ الاهتمام بالسياسة، والخروج من الفضاءات المحليَّة.

من جهة أخرى، يجدُرُ الاعتراف أنَّ الفاعل الوحيد الذي

يملِكُ مشروعًا يقومُ على القطيعة الفعليَّة هو التيَّار الجهادي الراديكالي؛ ما يُفسِّر جزئيًا نجاحه في تجنيدِ أعضاءٍ جُدُد.

تأكَّدت -إذن- بعد عامين من بدء غليان الاحتجاجات في العالم العربي أمورٌ عدة؛ قدرة المجتمعات العربية على التفاعُل مع حركتي الأسلمة والعولمة في الوقت ذاته، عجز الاسلام السياسي على طرحِ بديل فعليّ؛ ففي تركيا وتونس نُلاحِظ أنَّنموذج الاسلام السياسي يدين ببقائه إلى مزجه بين الاندماج في المؤسَّسَاتِ القائمة وبين الليبرالية الاقتصادية ونزعة محافظة اجتماعيًا، بينما استحوذ النظام العسكري المعادي للإسلاميين في مصر على المجالين. وأخيرًا، غيابٌ واضح لأي أيديولوجية بديلة.

يظهر الآن بوضوح كيف إنَّ الربيع العربي دعم الأسُسَ الأيديولوجية للتديُّنِ الذي وصفناه في هذا الكتاب الذي مازال يحتفظ بُحجِّيَّته أكثر من أي وقت مضى. وبالفعل فهذا الكتاب الذي نُشِر قبل الربيع العربي بعدة سنوات[1] يصفُ، على الحقيقة، ما أسمِّيه «إسلام السوق».

وأعني بـ«إسلامِ السوق» مزيجًا من النزعة الفردانية المُتعولمة، ونزعٍ للقداسة عن الالتزام التنظيمي، بما يتضمَّنه ذلك من التخلِّي عن الشعارات الكبرى التي كانت تدعو الى أنَّ الاسلام هو الحل، وإعادة النظر في فكرة شمولية الاسلام لكل مناحي الحياة، والتديُّنِ

(١) نُشرت الطبعة الأولى الفرنسية من الكتاب عام ٢٠٠٥. (الناشر).

الورع الذي لا يُولي مسألة الدولة والثقافة المرتبطة بالطبقة الاجتماعية اهتمامه. يتدعَّم «إسلام السوق» عالميًّا وينافس النموذج الاسلاموي الذي يربط بين الهُويَّة والسياسة والدين. «إسلام السوق» -إذن- ليس رافعة للتعبئة الهُويَّاتيَّة بقدر ما هو حافزٌ للانفتاحِ على العالم وهو يشارك بذلك في اللحظة النيوليبرالية التي تعكس التخلِّي عن البنى السياسية الكبرى سواء كانت دولًا ما بعد كولونياليَّة أو حركات اجتماعيَّة شموليَّة الطابع. لقد أسهم الربيع العربي في تأكيد هذا الاتجاه بشكلٍ كبير.

«إسلام السوق» ليس حركة مؤسَّسَة على حزبٍ أو تنظيم، ولا تيَّارًا أيديولوجيًّا كالسلفيَّة، أو سياسيًّا كالإسلام السياسي. ولا يُمثِّلُ «إسلام السوق» مدرسة في الفكر الديني. «إسلام السوق»، في الواقع، حالةٌ أو توجُّهٌ قادرٌ -كما سنرى لاحقًا- على التوطُّن والتأثير في كل حقائق الإسلام المعاصر. هذا التوجُّه يمكن أنْ يتجلَّى في بعض أنماط الحياة، وأشكالٍ مُعيَّنة من الدعوة، وحركيَّة فكريَّة جديدة. كما يمكن أنْ نُلاحِظ «إسلام السوق» لدى السلفية، والإخوان المسلمين، والصوفيَّة أيضًا. ويمكن أنْ نعثر على «إسلام السوق» في بعض «المُنتجاتِ الهُويَّاتيَّة»، وفي بعض العادات الحياتيَّة لدى المُتديِّنين من المسلمين. وينتشر «إسلام السوق»، أخيرًا، من الناحية الجغرافيَّة، في القارَّاتِ الأربع، من خلال بعض أشكال التعبير عن الهُويَّة في إندونيسيا، وتركيا، وعند الجاليات المُسلمة في أوروبا، كما هي الحال في مصر وشمال أفريقيا.

«إسلام السوق» في الأخير لا يُشكِّل بديلًا للإسلام السياسي، ولا هو آخر نموذج ينتج عنه. إنَّه فقط يُمثِّل أشكالًا جديدةً من التديُّنِ تبدو كحالة احتجاج داخلية هادئة على بعض النماذج الأساسية في الصحوة الاسلامية المعاصرة؛ بدءًا بفكرة الشمولية.

تبقى هنا فكرةٌ أخرى تتعلَّق بعنوان هذا الكتاب. يمكن أنْ يبدو مصطلح «إسلام السوق» كمصطلحٍ نقدي أو مثيرٍ للجدل، والحال أنَّ ذلك لم يكن هدف الكتاب. فـ «إسلام السوق» مصطلحٌ تحليليّ يستند أساسًا إلى فكرة الربط بين أنماط معينة من التديُّن الإسلامي والأسُسِ الفلسفية للسوق مثل النزعة الفردانية، والانفتاح، وأولوية الشأن الخاص على العام المرتبط بالدولة، والشبكة، والعولمة، ونزعة الاستهلاك، والتخلِّي عن السردياتِ الأيديولوجية الكبرى . . . إلخ. لا يتحدَّث هذا الكتاب عن الدين، في معرض حديثه عن «إسلام السوق»، بل فقط عن أنماط جديدة من التديُّن.

ومن خلال الدفاع عن فكرة أنْ بعض ممارسات التديُّنِ في العالم الاسلامي تتفاعل بشكل إيجابي مع الأسُسِ الفلسفية للسوق، فإنَّ هذا الكتاب يرفض إذن، وبشكل ضمنيّ،كل التراث الاستشراقي والرؤى الإعلامية أو السياسات الغربية تجاه المجتمعات العربية والإسلامية.

ينظر الغرب، بعيون عالم الإعلام والسياسة، إلى العالم العربي من منظار التراجع نحو أو الانكفاء على الهُويَّة، بينما

تتضمَّنُ حركة الأسلمة أكثر بكثير من مجرَّدِ سؤال الهُويَّة وبما يكفي لنظرة مختلفة غير متحيِّزة لطرفتمرّ عبر بوابة الانفتاح الثقافي. وهذا هو ما يراهن عليه هذا الكتاب بحيث يسعى للتأكيد على أنَّه في مقابل الرؤى الهُويَّاتيَّة داخل الخطاب الإسلاموي؛ هناك ثقافة اسلامية جديدة تتشكَّل من خلال علاقة منفتحة بالعالم.

سنقدِّم هنا كتابًا في علم الاجتماع يشرح هذا كله بحيث ينظر في الممارسات الاجتماعية. إذ سيُركِّز الكتاب على التغيُّرِ الذي طاول مفاهيم الحشمة، أو تلك المتعلِّقة بالأعمال الخيرية (أو أعمال البرّ)، وعلى قصَّة الأناشيد الثورية عند الإخوان المسلمين، ونماذج الدعوة الإسلامية المعاصرة. كما سيهتم الكتاب بمسألة ظهور خطاب إسلاموي جديد لا يعِدُ بطوبيا أخيرة؛ خطابٌ ينبثق عند نقطة التقاءٍ بين نظريات «المنجمنت» الأمريكية وأدبيات التحقُّقِ الفردي حيث الأولوية هي للفاعلية والنجاح الإداري وليس للبديل الحضاري. وقبول سياقات العولمة؛الليبرالية والرأسمالية. سيصف الكتاب بعدها فكر شباب المثقفين الذين تطوَّروا على تخوم حركة الإخوان المسلمين، كما سيحلِّل الأمزجة المتجدِّدة لدى الطبقات الوسطى، وهي الأمزجة ذات الطابع الصوفي، الهجين، والقريب من ثقافة «النيوآيج». في كلمكان يمكن تجريد خطوط كاشفة متكرِّرة؛ البُعد عن التسييس، وتقليصُ المكوِّنات الهُويَّاتيَّة، والاعتماد الصريح أو الضمني على فلسفة السوق التي ألححت في الحديث عنها، والتي تتلخَّصُ في التركيز على الفرد لا على

الجماعة، وسيادة منطق الانفتاح الثقافي.

نلاحظ في الأخير كيف تنفصل الصحوة الإسلامية عن المِخيال الديني - السياسي الذي ارتبط بدعاتِها الكلاسيكيين؛ ونقصد بهم تنظيمات الإسلام السياسي. وهو ما قد يُفسِّر السهولة النسبية التي تخلَّى بها المجتمع المصري عن حركة الإخوان المسلمين، ساعده على ذلك الأخطاء السياسية التي ارتكبتها الحركة والصخب الإعلاميّ الذي صنعه خصومهم. في النهاية يبدو أنَّ التغيير يطالُ الاسلام السياسي ذاته بشكل كامن. تقف ظاهرة النجاح الواسع التي حظيت بها أدبيات التحقُّقِ الذاتي لدى شباب الإسلاميين شاهدًا على ذلك؛ فالسردية الإسلامويَّة الكبرى والمفاهيم الكلاسيكيَّة التي كانت تدعو إلى الخلافة، والدولة الإسلامية، والأمة الإسلامية، والجهاد؛ كلُّها في مرحلة أزمة، أو هي غير فعَّالة إلا في الفضاءات التي انهارت فيها الدولة.

إذن، وبينما عمَد الإسلامويون الكلاسيكيون من إخوان مسلمين وأحزاب وتنظيمات تستمدُّ مرجعيَّتِها من تراث حسن البنَّا، إلى ربط مصيرهم بالدولة الوطنية؛ النتاج السياسي لمرحلة القرن التاسع عشر الذي يُعاد النظر بشأنه اليوم، فإنَّ الإسلامويين المتبرجزين والبرجوازيين المتأسلمين يراهنون على تجاوزها. وهم يلتقون جميعًا حول مثلٍ أعلى لسياسة تقوم على الأخلاقية والأعمال الخيرية تهدف إلى توطين المكوِّن الديني في فضاءٍ عامٍّ يعُاد تديينه ويفلت منتدخُّل الدولة على النمط الفرنسي. هذا المثل

الأعلى يرتبط ضمنًا بالثورة الأمريكية المحافظة ويستنِد إلى فكرة دولة غير مُتدخِّلة، وقطاع خاص يتكفَّل بحل مسألة اللامساواة الاجتماعية، والدفاع عن الآليات المؤسَّسَيَّة للديمقراطية، وضغوط قوية تجاه تعدُّديَّة أنماط الحياة.

هنا يتجلَّى «اسلام السوق» بوصفه «الثورة المحافظة الأخرى»[1] أو بعبارة أدق، وبشكل قد يثير جدلًا، نموذجٌ على الطريقة الامريكية. هذه إذن سبيل ثانية لتعريفِ «إسلام السوق». ففي عالم التأكيد على الهُويَّة الإسلامية المعاصرة، يمنح «إسلام السوق» لعددٍ من القِيم والعواطف والسلوكيَّات الدينية فرادتها التي ترتبط بالتفاعل بين المجال الديني والحقل الاقتصادي وليس من خلال تسييس الإسلام.

إنَّ فهم الخطوط العامة لهذه الثورة المحافظة على الطريقة الأمريكية تعني الدفاع عن فكرة أنَّ الثقافة الغربية وعودة الدين في العالم العربي والإسلامي ليس مُقدَّرًا لهما أن يتصادما. هذه هي الرسالة التي يحويها هذا الكتاب؛ فهو هنا يرفض أطروحات صدام الحضارات لا ليسوق تبريرًا فضفاضًا عن ضرورة الحوار بين الحضارات، بل بهدف تسليط الضوء على بعض الأنماط المتناقضة أحيانا داخل ديناميكيات العولمة، بل داخل التفاعلات ذات الطبيعة الهُويَّاتيَّة ذاتها؛ تلك التي من المفترض أنَّها ترفض العولمة.

(١) «الثورة المُحافظة الأخرى» هو العنوان الفرعي للطبعة الفرنسية. (الناشر).

تتضمَّن هذه الرسالة، أخيرًا، نقدًا ربما يكون قاسيًا لكل الحركات السياسية التي تقوم على التعبئة السياسية لسؤال الهُويَّة. الإسلام السياسي الكلاسيكي في العالم الإسلامي كاتجاهات اليمين الوطني والشعبوي في الغرب يجب عليها أنْ تتواءم مع هذه الحقيقة؛ «الآخر» موجود بين ظهرانينا، ظاهرٌ للعيان وأقربُ من أنْ يُطرد أو يتمَّ إجلاؤه أو إنكار وجوده. إنَّ «إسلام السوق» هو أيضًا أحد أنماط التعدُّديَّة.

**باتريك هايني**